لغة سعد الله ونوس المسرحية بين العامية والفصحى

وليد معبدي
المشرف: **د.أحمد التجاني سي كبير**، أستاذ محاضر "أ"
مخبر النقد ومصطلحاته
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ملخص
تعتبر اللغة من أهم دعائم أي عمل أدبي، وهي في العمل المسرحي أهم، عرضا ونصا، فهي قناة التواصل التي تواجه المشاهد [المتلقي]، وتؤثر فيه مباشرة، وقد كثر النزاع وطال النقاش حول اللغة المناسبة للعمل المسرحي، أهي الفصحى في مستواها الجمالي الراقي والفني أم العامية في قدرتها على نقل الواقع وقربها من الجمهور ومن هذا المنطلق اختلفت اللغة المسرحية من عمل لآخر نتيجة تأثيرات عدّة، كالموضوع المراد تناوله، والتوجه الفلسفي الذي يتكئ عليه الكاتب في إنتاجه الأدبي ويصب بحثنا هذا:[لغة سعد الله ونوس المسرحية بين الفصحى والعامية] في محاولة منا لف هم خلفيات هذا الإشكال، وكيف تجلى في أدب ونوس وكيف تعامل معه؟
الكلمات المفتاحية: *المسرح ـ اللغة ـ الفصحى ـ العامية.*

Résumé
La langue est l'un des piliers les plus importants de toute œuvre littéraire. Elle est la plus importante dans l'œuvre théâtrale au niveau de la présentation et du texte. La langue est le moyen de communication auquel le lecteur est confronté, et elle le touche directement. Le langage approprié pour le travail théâtral a fait l'objet de nombreux débats ; entre l'utilisation du langage classique dans son niveau esthétique (haut de gamme) ou le dialecte dans sa capacité à transmettre la réalité et sa proximité avec le public. En ce sens, le langage théâtral diffère d'une œuvre à l'autre en raison de plusieurs influences, telles que le sujet à traiter et l'école philosophique sur laquelle l'écrivain s'appuie dans sa production littéraire. Cette recherche porte sur le langage théatral de Saadallah Ouanousse entre classique et dialecte, pour essayer de comprendre l'arrière-plan de ce problème et comment il s'est manifesté dans la littérature de Saadallah Ouanousse et comment y faire face.
***Mots-clés** : théâtre, la langue, langue classique, dialecte.*

Abstract
The language is one of the most important pillars of any literary work, and it is in

theatrical work more important, presentation and text, because it is the channel of communication facing the viewer [reader], and affect him directly, and there has been much debate and debate over the appropriate language for theatrical work, Or the vernacular in its ability to convey reality and its proximity to the public. In this sense, theatrical language differed from one work to another as a result of several influences, such as the subject to be addressed and the philosophical orientation on which the writer rests on his literary production. Trying us to understand the back-grounds of this problem and how it was manifested in literature of Ouanous and how he dealt with it.

***Keywords**: Theater, Language, Common Language, Classical Language*

مقدمة

استحوذت اللغة في العمل المسرحي على مساحة كبرى وهامة من دراسات النقاد والباحثين في مؤلفاتهم ومؤتمراتهم، بشكل لم يتسن لكثير من المجالات الأدبية ولعل قرب المسرح من الواقع والمجتمع في نقله لعمق مشاكله من جهة، وقربه منهم أيضا على خشبة المسرح والسمع -كما يقول ابن خلدون- أبو الملكات اللسانية، كل هذا كان كافيا لجعل لغة العمل المسرحي محط أنظار النقاد والباحثين، وحتى الأدباء أنفسهم اهتموا بلغة كتابتهم العمل المسرحي، وتفرقت بهم المذاهب حسب توجهاتهم الفكرية ونظرتهم للواقع ولرسالة الأدب.

ولما كانت اللغة بهذه الأهمية جاء هذا البحث ليقف بنا على اللغة التي كتب بها ونوس، وهو قامة من قامات العمل المسرحي، في محاولة منا لتحديد الاتجاه الذي اتجهه بين دعاة الفصحى أو العامية، وأيهما غلب على جل أعماله المسرحية الرائعة، ورصد تأثيرات ذلك على إنتاجه انطلاقا من إشكالية تقول: هل وقفت اللغة حائلا دون أن يبدع ونوس ويحلق في سماء العالمية؟، وأية لغة كانت أنسب لذاك الإبداع والتحليق: العامية أم الفصحى؟

العامية والفصحى والنزاع على لغة المسرح

اللغة بمفهومها العام هي الوسيلة الأساسية للتعبير والتخاطب سواء كانت شعرية أو نثرية، ولا بد للغة من توافر جملة خصائص هامة منها أن تكون محملة بشحنات عاطفية وفكرية،

كما يجب أن تكون موحية بالواقع وذات تأثير وقدرة على تصوير الحدث والتعبير عن طبيعة الشخصية بوصفها واسطة لعملية نقل الأفكار[1] .

لذا اختلفت لغة العمل المسرحي بين فصحى وعامية، فما هي الفصحى وما هي العامية وما حجج دعاة كل واحدة منهما؟

أولا: العامية

1-مفهوم اللغة العامية

هي لغة الحديث التي نستخدمها في شؤوننا العادية ، ويجري بها حديثنا اليومي في الصورة التي اصطلحنا على تسميتها بلغة لهجات المحادثة ، وهي لا تخضع لقوانين تضبطها وتحكم عباراتها، لأنها تلقائية متغيرة تتغير تبعا لتغير الأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم [2].

فاختلاف النطق باللغة من شخص لآخر ومن منطقة لأخرى يفرض علينا ضرروة يقينية بعدم وحدة اللغة بشكل مطلق كما هو مشاهد في تعدد نطق اللغة العربية من قطر لآخر في العالم العربي بل حتى في المجتمع الجاهلي اختلفت لهجات العرب من قبيلة لأخرى.

إذا فالعامية هي لغة الحس والعجلة، لغة فجائية تلقائية انفعالية، والانفعال بيولوجي الطابع، لا يتيسر له وقت ولا فراغ كي يعمل بالروية، ولهذا تطفو العامية على سطح الوجدان، وتسيطر على روابط الجملة، وهي لا تبالي بالعوامل النحوية، بل تكتفي بإبراز ترسبات أنفسنا، والعامية خفيفة الخطى تستمد زخمها الأكبر من الإيحاءات، والإشارات البسيطة التي ترافقها، وهي لا تقبل الحركات، ولهذا لا تتركب من جمل بمعنى النحو، وفي العامية ألفاظ ذات معنى؟ وفي العامية ترص الوجدانيات كالقذائف والمتفجرات ، وفيها لا نعثر على الجملة بالمعنى النحوي ،بل تتلاشى الروابط والعوامل فتبرز الصورة الكلامية كتلة واحدة ،تتفجر كالمفرقعات ،ونظامها نظام الانضغاط وهي تترك لذهن السامع أن يدرك بالحدس نوع الصلة بين الكلمات [3].

---

[1] ماري إلياس وحسان قصاب المعجم المسرحي مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض، مكتبة لبنان، لبنان، ط1 ،1997، ص 425

[2] ينظر خولة طالب الابراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، ترجمة محمد بحياتن، دار الحكمة، الجزائر، د، ط ،2007، ص 196.

[3] محمد عبد الله عطوات، الغة الفصحى والعامية، دار النهضة العربية، بيروت ط 1، 2003، ص 65.

نعم للعامية دورها وتفاعلها في المجتمع، لكن هل تنجح العامية في أن تكون لغة التأليف والتدريس والخطابة والشعر والصحف والمؤتمرات، وهل تنجح عامية المسرح في توحيد شعوب الأقطار العربية على تباين لهجاتها، وهل ترقى بالمسرح العربي لأن يصبح عملا أدبيا خالدا وعالميا، فيا ترى كيف يجيب دعاة العامية عن هذه الأسئلة وما مستندهم في الدفاع عن وجهة نظرهم.

2-الدعوة للعامية وحججها

لعل أثر التغريب ـ الذي يتمثل النموذجَ الأوربي ـ واضح بشكل جلي في دعوة أصحاب هذا الموقف الذين يطالبون بنسف الفصحى، وتقديم العامية في الأدب، والاتجاه الكلي نحو الغرب الأوربي بالاعتماد على نماذجه الأدبية وأساليبه الجمالية، وكل ما له صلة بالفن والأدب، حتى لو لم يكن ينسجمُ وطبيعة الأجناس الأدبية العربية. بل غالى بعضُ هؤلاء وطالب باستبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي. ولهذا التيار جذوره التاريخية التي تعود إلى العصر العثماني وازداد الوضع سوءاً في العهد الاستعماري الحديث حيث حصرت اللغة الفصحى في المساجد والكتاتيب.. وقد وضع أحد المستشرقين الألمان كتاباً بعنوان (قواعد العامية في مصر) دعوة منه للعامية وإلى قلب الحرف العربي إلى حرف لاتيني. وتبعه من أبناء العربية فريق كبير كان لكل منهم مشروعه في الدعوة للعامية وأغراضه وتصدى لهم الكثير من أبناء العروبة في معركة أسالت الكثير من الحبر وجالت في ميدانها ألسنة الأقلام ونتائج الأفهام.

وقد وضع دعاة العامية مبررات لاستخدامها ويزعمون لها عدة مميزات، يقول أنيس فريحة أن العامية تمتاز بالميزات الآتية:

- -اللهجة العامية حية متطورة، وتغير نحو الأفضل؛ لأنها تتصف بإسقاط الإعراب، وبشكلها العادي المشترك المألوف واعتمادها الفصحى معينا لها.
- -الاقتصاد في اللغة وهو جوهر من جواهر البلاغة.
- -الإهمال والاقتباس والتجديد في المعنى؛ فالعامية برأيه نامية مسايرة لطبيعة الحياة تحرص على إماتة وإهمال ما يجب أن يهمل، واقتباس ما تقتضيه الضرورة من الألفاظ.
- -العنصر الإنساني يضفي عليها مسحة الحياة؛ فالفصحى لدى أنيس فريحة ليست لغة الكلام؛ لأنها لا تعبر عن الحياة بحلاوتها وقسوتها كما تفعل العامية، ودليله على ذلك أننا

لا نستطيع التعبير بواسطة الفصحى، بنفس الطلاقة التي نعبر فيها بواسطة العامية عما نريد[4].

3-العامية في المسرح

وقد ألقت هذه الدعوة بظلالها على المسرح إذ تعد اللغة من القضايا الشائكة التي تدوالها رواد المسرح وكتابه ،وقد احتار رواد المسرح العربي كمارون النقاش وأحمد أبو خليل القباني ويعقوب صنّوع ـ كما هو معلوم ـ في الكتابة بالعامية تماشيا مع الأشكال المسرحية السائدة كخيال الظل والحكواتي، فهم اختاروا الفن الكوميدي الذي يهتم بالنقد الاجتماعي، كهدف يسعى إليه في مقابل إغفال الرقي بالفن المسرحي والذوق العام، لذا فهم ركزوا على الملهاة وتغافلوا عن المأساة التي تحتاج إلى تعامل خاص مع اللغة في نظرهم ،بينما اتجه أحمد أبو خليل القباني إلى المسرحيات التاريخية كعنترة، وهارون الرشيد والتي تستلزم لغة فصحى راقية استعمل فيها السجع والشعر معا[5].

ولعل في بداية المسرح العربي خلال نشأته باعتماد العامية كلغة يخاطب بها جمهور الدور الفاعل في تجذر هذا الخلاف، وإفساد الذائقة العامة لدى الجمهور فلو كانت الفصحى هي المعتمدة من الأول لربما تغير الحال.

ويرى محمد الدالي أن المسرح عبارة عن لغة، ولا يمكن أن تحدث شعبا إلا من خلال لغته وتمتدح المسرحية عادة إذ جرى الحوار على ألسنة الممثلين سلسا طبيعيا، بحيث يحس المتفرجون بأن ما يشاهدونه هو ما ينطقه نظراؤهم في الحياة الواقعية، هذا إذا كان ما يقدمه المؤلف المسرحي مشكلة خاصة لفرد أو مشكلة اجتماعية[6]، فاستخدام الفصحى ربما يجعل المسرحية مقبولة القراءة، ولكنها عند التمثيل تسلتزم هنا الترجمة إلى اللغة التي يمكن أن ينطق بها الأشخاص، فالفصحى إذن ليست هنا لغة نهائية في كل زمان أو مكان [7] .

وقد سار على كتابة المسرح بالعامية كثير من المسرحيين العرب بدأ بالرواد كمارون النقاش وأحمد أبو خليل القباني ويعقوب صنّوع ثم تبعهم من بعدهم كثير من المسرحيين العرب، مع اتفاق الأسباب الداعية لذلك أحيانا واختلافها أحيانا أخرى كالتأثر بالاتجاه

---

[4] أنيس فريحة. "نحو عربية ميسرة ". بيروت: دار الثقافة، 1973، ص122-123.

[5] عمر الدسوقي، المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها، دار القكر العربي، دمشق، دط، 1980. ص 22.

[6] محمد الدالي، الأدب المسرحي المعاصر، عالم الكتب، القاهرة، دط 1986، ص 41 .

[7]محمد مندور، مسرح توفيق الحكيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ط3 ،1966،ص123.

الواقعي والتعصب للحدود الوطنية الضيقة كموجة تمصير الأدب والفن التي اشتاحت مصر في فترة ما.

ثانيا: الفصحى

1-مفهوم الفصحى

قبل معرفة المعنى الاصطلاحي للفصحى يجدر بنا الوقوف على المعنى اللغوي، يقول ابن سنان الخفاجي : الفصاحة الظهور والبيان، ومنها أفصح اللبن إذا تجلت رغوته ،وفصح فهو فصيح ،قال الشاعر : وتحت الرغوة اللبن الفصيح ،ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوءه ،وأفصح كل شيء إذا وضح[8] فمن معاني الفصاحة البيان والظهور، ومنه نقول أفصح الإنسان إذا عبّر وأبان عما يجول في نفسه .

كانت للعرب في جاهليتهم لغات عدة ذكرها أهل التاريخ والسير، ولقد اندثرت معظم هذه اللغات وبقيت لغة عدنان، وهي التي وصلتنا في الآثار الأدبية القديمة شعرا ونثرا و بها نزل القرآن الكريم على الحبيب المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه، ولا يكاد القرن السابع للميلاد ينتصف، حتى نجد أنفسنا أمام لغة غنية بمفرداتها تامة في إعرابها ،متينة في تراكيبها، صقيلة في أساليبها التعبيرية ،ناضجة في الصور التجريدية[9].

2-الدعوة للحفاظ على الفصحى

لم أقل الدعوة للفصحى لأن القاعدة بقاء ما كان على ما كان فالأصل في كلام العرب الفصاحة والبيان والعامية نزول عن المستوى وخروج عن السليقة العربية ثم إن الفصحى هي اللغة الائتلافية التاريخية الجامعة التي تجمع العرب و تهيء لهم التكاتب والتخاطب والتقارب ، بقطع النظر عن تفاوت مناهجهم في ذلك واختلاف حظوظهم من الإتقان[10]...وإذا كنا نرغب في أن يكون أدبنا راقيا وعالميا فلا بد من الفصحى يقول طه حسين :إنك إذا كتبت باللغة الفصحى فأنت مفهوم في جميع الأقطار التي تتكلم العربية ،ولكنك إذا كتبت بلهجة من اللهجات فلن يفهمك إلا أصحاب هذه اللهجة[11].

---

[8] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة دار الكتب العلمية، بيروت ط1 ،1982، ص56-57.

[9] أنيس فريحة، اللهجات وأسلوب دراستها، دار الجيل، بيروت، ط1 ،1989،ص15.

[10] ندم مقلا قضايا مسرحية، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، د، ط1995 ص12.

[11] نهاد موسى، قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، دار الفكر، عمان ط 1 ،1987ص80 .

واستغرب من دعاة الكتابة بالعامية جدا، وأني أتخيل لو استجاب لدعوتهم العقاد في فيلم الرسالة وجعله بالعامية ترى هل كان له هذا الوقع والأثر في نفوس المسلمين والعرب بالخصوص، فهاهي كافة شرائح المجتمع العربي على اختلاف أقطاره وتباينها تتذوق فيلم الرسالة ولغة حواره فصحى حتى أنك لتجد بعض العبارات صارت مضرب المثل يستشهد بها العامة في أنديتهم وجدهم وهزلهم ،بل حتى بعض المسلسلات التاريخية الأخرى ترك في نفوس الجمهور العربي أثرا واضحا جليا ما كان ليكون لولا أنها اختارت الفصحى ولا أحسب أن مسلسل ربيع قرطبة للدكتور وليد سيف احتل تلك المكانة في نفوس مشاهديه حتى باتوا يعيدون مشاهدته مرّات تلو مرّات كما أخبرني بعضهم لولا أن لغة حواره كانت فصحى راقية فنية جذابة ،إذا ليست المشكلة في أن يرتقي الداني إلى المستوى العالي بل هذا هو المطلوب في الفطرة الإنسانية السليمة التي تسعى نحو الكمال ،لكن الاتجاه نحو العكس هو المستغرب وهو القاتل لملكة الذوق والحس الفني .

3-الفصحى في المسرح

وكما كتبت عدة مسرحيات بالعامية كتبت مسرحيات عدة باللغة الفصحى الخالصة ومزج بعضهم بين العامية والفصحى كما نجد ذلك عند فرح أنطوان فقد كتب مسرحية مصر الجديدة ومصر القديمة والتي كانت مزيجا لغويا ،فكتب أجزاء منها بالفصحى وأجزاء أخرى بالعامية ، وثالثة بالاثنين معا سماها الفصحى المخففة والعامية المشرفة ،وقد فسّر ذلك بأنه لا يريد أن يضحي بتقليد الطبيعة في سبيل اللغة، فاختار حلًا وسطا[12]، وفي مسرحيته هذه قسم أنطون الشخوص إلى ثلاث، طبقة عليا تتكلم الفصحى وطبقة دنيا من البسطاء تتكلم العامية، بينما جعل للنساء طبقة اللغة الوسط ،وربما بهذا النموذج الذي يقدمه أنطون تصبح مسرحيته رقعا لغوية ،رقعة فصحى ،رقعة عامية ، ورقعة بين بين تتوسطهما[13] .

ثالثاً: جدلية الفصحى والعامية في مسرح سعد الله ونوس

مرّ مسرح ونوس بمراحل عدة؛ بدءًا من دراسته للصحافة في القاهرة، 1959، (أيام الوحدة) وسفره -بعد ذلك- إلى فرنسا لدراسة المسرح الأوروبي 1966، مرورًا بالانقلاب الكبير الذي حدث في حياته وأدبه، بعد هزيمة 1967، والذي تجسد في مسرحيته "حفلة سمر من اجل الخامس من حزيران". ومعروف أن سعد الله ونوس لم يستخدم سوى الفصحى في

[12] توفيق موسى اللوح، لغة المسرح بين المكتوب والمنطوق، مصر العربية، القاهرة، ط1، 1989، ص 50.
[13] ينظر شوقي ضيف، في التراث والشعر واللغة، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة، د، ط1987، ص253.

أعماله كلها، وهي فصحى خالية من التزويق، والإثقال بما اعتاد بعض المسرحيين إثقال لغتهم به من فخامة، وكلمات طنانة، وتصاوير شعرية وغير ذلك [14]، لكن تخللت بعض مسرحياته العامية كما في مسرحية مغامرة رأس المملوك جابر، ومنها :

- زبون 1: بلا أخبار ووجع قلب .
زبون 2 : ابحث عن أغنية تبل الريق
زبون 3 : أي أسمعنا غنوة حلوة..
- وفي مكان آخر :
زبون : يحرز دينك
زبون 2 : من أين وجدها ؟ .
زبون 3: الله يحميه.. يا عيني عليه ..ما هذه الفطنة
زبون 1 : أي هيك تكون الرجال . مثله يستطيع أن يلعب بدولة .زبون 2: ابن زمانه.. قلت لكم منذ رأيته أول مرة، هذا ابن زمانه وحتى جابر نفسه اختلطت بفصاحته بعض العامية مثل هذا المقطع .
- جابر: وتشغلين نفسك بالخليفة والوزير! فخار يكسر بعضه يا زمرد. لن نحمل همومهم أيضاً.
- فيا ترى كيف نظر ونوس إلى هذا الإشكال والازدواج؟

يقول سعد الله ونوس عن نفسه قائلا: "منتصف الستينات بدأت بيني وبين اللغة علاقة إشكالية، ما كان بوسعي أن أتبينها بوضوح في تلك الفترة. كنت أستشعرها، أو عبر ومضات خاطفة، لكن حين تقوض بناؤها الرملي صباح الخامس من حزيران، أخذت تلك العلاقة الإشكالية تنجلي وتبرز تحت ضوء شرس وكثيف [15] ويقول أيضا في آخر ما كتب : إني لا أحب الفخامة، وإني أحاول أن أروي الحكاية بأبسط الكلمات وأقلها غموضا[16] فالأمر يتعلق ببناء المتن المسرحي، في الوقت الذي تكون فيه القضية التي يعالجها النص ترتبط بواقع المتفرج، ينسى المتلقي قضية اللغة ولا يعيرها أي اهتمام، يقول ونوس : "لي تجربة شخصية في هذا المضمار حين قدمت مسرحية (الفيل يا ملك الزمان)، سألت عددا من المتفرجين أثناء خروجهم عقب العرض عن لغة المسرحية، وتبين لي أن معظم الذين سألتهم لم ينتبهوا فيما إذا كانت المسرحية مكتوبة بالعامية أو الفصحى، وبالتالي لم تكن

---

[14] حوار مع عز الدين إسماعيل أجراه حسن محمود عباس، مجلة العربي ع 328 مارس 1986 ص 100.

[15] صلاح صالح، سعد الله ونوس في عقده الأخير، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان ع 16، س4، شتاء 1997، ص 30.

[16] إسماعيل فهد إسماعيل، الكلمة/الفعل في مسرح سعد الله ونوس، مرجع سابق، ص7.

الفصحى_في المسرحية مشكلة من مشاكل التواصل، تكرر معي الأمر نفسه_في "حفلة سمر من أجل 5 حزيران"، إذ لم تكن هناك أية مشاكل_في التلقي بين المتفرجين وبين المسرحية التي كانت كلها مكتوبة بالفصحى[17] على أن لغة ونوس الفصحى كانت راقية ومنتقاة خصوصا_في كتاباته المتأخرة .

وهكذا فقد غلب على مسرح ونوس الفصحى وإن تخلل بالعامية أحيانا إلا أنها ظلت_في حيز ضيق وفي حدود نقل صورة الواقع، ولم تمنع الفصحى الجمهور من التجاوب مع مسرح سعد الله ونوس، بل كان انشغال المتلقي أحيانا بربط ما يشاهد بواقعه، هو الأهم دون تحديد اللغة.

أهم النتائج

كان مسرح ونوس جزءا من المسرح العربي الذي تأثر بالمعركة بين العامية والفصحى ورغم تمسك ونوس بالفصحى إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور العامية_في محاولة منه للتقرب للواقع وكسر حاجز الإيهام مع المتلقي، على أن الجميل_في اللغة الفصحى عند ونوس سهولة ألفاظها وسلاسة معانيها حتى كاد أن يمتاز بين المسرحيين العرب بلغة خاصة جديرة أن تولى باهتمام النقاد والدارسين، ويحتذي بها أدباؤنا ويستفيدوا من تجربة ونوس المسرحية ككل.

[17] سعد الله ونوس، عن الذاكرة والموت–دار الأهالي، دمشق ط1، 1996 ص152.